الانسان ازاء المدنية

(تابع ما قبلهُ)

من منكم ايها السادة يشعر بهذه الحرب التي هو ميدانها حرب دائمة لا صلح فيها ولا سلام فاما غالب واما مغلوب . اجل اننا نشعر بها عند ما نرزح تحت ثقل الداء كالحمى او الالم كالصداع ولكن كم من المناوشات تنشب بين المكروب والدم دون ان نحس بها وكرياتنا البيضاء وحدها تحمل عبأها الثقيل والله يعلم كم يموت منها في هذا السبيل كل يوم وكل ساعة وكل دقيقة . من منكم لم تصبهُ وخزة ابرة أو لم يتألم من حرقٍ او غيره من الآفات الصغيرة التي يتكون من جرائها مِدَّة صديدية ؟ اتعلمون من اين اتت تلك المدة وما هو ذلك الصديد ؟ هذه جثث الكريات البيضاء والخلايا الفارَّة التي ماتت دفاعاً عن الجسم عند ما تطرَّق اليهِ المكروب تخنَّث الى قتالهِ — فالسلام عليك يا ابطال الدم شهداء النهجة والحياة . تموتين من اجل الانسان وهو عقوق لا يحزن لك وجاهل لا يعتبر بك تموتين ولا تحتاجين الى من يزور لك مقاماً او يقلد صدرك وساماً او يهدي اليك على الاقل سلاماً

اذا سألتم أين تذهب جثث الموتى من المحاربين وكيف لا تفسد الهواء رائحتها الكريهة قلت لكم ان لها مدافن عديدة يحملها اليها الدم وامهما الطحال . الطحال الذي يأكلهُ بعضكم ساعة الطرب عند ما تدار الكؤوس هو المقبرة الكبرى التي تضم هذه الرفات من صديق وعدو فما اغرب اطوارك يا انسان

رب معترض يقول كيف يضم الطحال هذه البقايا ولا يتصدَّع ؟ أين يضع تلك الجثث التي ترد اليهِ تباعاً بلا انقطاع وهو على ما نعلم لا كبر ولا اتساع . ألا فاعلموا ان الخليَّة كالجسم فكما يحل الجسم تحت التراب وتعود عناصره الى تجديد الحياة تندثر الكريات في الطحال لتجدد خلق الكريات

هذه هي اسرار التنازع الحيوي في الجسم الانساني أطلعنا عليها علم البكتيريا فعرفنا سر الداء وكُنهَ الدواء وادركنا كيف يحصِّلُ الجسم المناعة على المرض . ومعرفة هذه المناعة هدت الباحثين الى اكتشاف علاج واقٍ شافٍ لامراض هائلة كالدفتيريا مثلاً وبها سيتوصلون الى الانتصار على سائر الامراض باذن الله . ولم يكف الانسان ما فعل بل تعدى من صحة الفرد الى الجماعة فاقام سنناً صحية يحفظ بها نظام الاجتماع وتكفل للفقير والضعيف والمريض القوت والقوة والشفاء . بل ذهب الى ابعد من ذلك فاراد محاربة الوراثة

المرضية بالاهتمام بصحة الخاطبين حفظاً لجمال النسل وإشفاقاً على قومه ان تتبدد جيلاً بعد جيل . ولكن هذا المبدأ لا يزال قليل الانتشار لان نزع العادات اصعب من نزع الاسنة والطامع بالزواج لا يوافقهُ اعلان ما بهِ من ضعف . ولا بدَّ من مرور الزمن على هذه الفكرة لتختمر وتدخلها الحكومات في نظامها فلا يكون زواج بدون فحص طبي او شهادة طبيب يحلل ذلك ويتحمل تبعتهُ البعيدة من الوجهة الصحية

وحسبكم ان تلقوا نظرة على الطرق التي يخططونها اليوم في بناء البيوت وتوزيع الحرارة والكنس والتطهير وما يقيمونهُ من الملاجئ لرحمة الحبالى اهتماماً بالطفل من قبل ان يولد والمعاهد لتوليد الفقيرات وتوزيع اللبن المعقم على الاطفال الى غير ذلك — لتتأكدوا مبلغ الرقي الذي نالهُ انسانُ اليوم بفضل العلم . فالبقاء يا سادة حقٌّ مقدس جهلهُ الاقدمون وعرفناهُ نحن دون ان نستطيع المحافظة عليهِ ولكن الزمان الآتي كفيل بهِ فالرحمة ديانة المستقبل وهيكلها العظيم سيشيد في ضمير كل انسان على اساس احترام هذا الحق

ولست ارى في الحرب الحاضرة ما يناقض قولي فالحرب ليست بنت التمدن وان استمدت سلاحها منهُ وما قصدي ان اشرح لكم فلسفة الحروب واسبابها ونتائجها انما اردت ان اقول ان جسم المجتمع كجسم الفرد يعتورهُ الضعف والمرض وهذه الحرب ان هي الاَّ حمى شديدة اصابت دماغ البشرية الراقية فارتفعت درجة الحرارة الى الاربعين وزادت سرعة النبض الى المئة والخمسين وضاق مجال النفس وغاب الرشد ووقف الاطباء دونها حيارى عزَّلاً ولكنها ستزول و يتغلب جسم الاجتماع عليها بما فيهِ من ذخيرة الارتقاء وقوة التعقل فيخمد ذلك السعير ويعود ذهن التمدن الى الصفاء وقلب الانسانية الى خفوقهِ الطبيعي وتتبدد اعراض الداء واحداً بعد آخر بل ربما فعل كبعض الامراض فكان لقاحاً للمجتمع يعطيهِ مناعةً على الحرب الى اجل بعيد

والمتشائمون الذين يرون في هذه الحرب وقوفاً بالانسان عن اطراد الرقي مخطئون فكثيراً ما تخرج الاختراعات من بين الحديد والنار . وما هاج الفكر البشري بشيء كهذه الحرب فانها بعثت فيهِ حياة لم تكن من قبل فرأى ما لم يحلم بهِ في ايام سلمهِ فاذا صح ان الانسان هو الذي يخلق الشدة لنفسهِ فقد صح ايضاً انهُ هو الذي يعرف ان يزيلها فيفني ما اوجد و يوجد ما افنى . والذي ارى ان هذه الحرب ستكون وافرة العظات والعبر كما هي وافرة المصائب ومذ اليوم نرى الدول المتحاربة او بعضها يجتهد ان تستفيد منها للمستقبل فتنشئ الجمعيات وتنشر الخطب فيما يجب ان يكون عليهِ نظام المعيشة بعد الحرب في البيت والمدرسة والنادي

ليتسع للجيل الآتي الصفات اللازمة من قوة وصحة وصبر على المشاق ولباقة في العمل وتفنن في الاختراع

لا انكر ان الحرب من اقدر اعداء الانتخاب الطبيعي وأكد العقبات التي تعترض اصلاح النسل بما تذهب به من اهل القوة والشباب وهم زهرة الامم وغاية آمالها ولكنها لا تذهب بهم جميعاً ولا يزال في البقية الباقية مع يعتاض به مع الوقت

ايها السادة لما اخذت بتحبير هذا الخطاب ما ظننت قط اني قادر على نظم بيت من الشعر فيه فلما وصلت الى الكلام عن الحرب شعرت بنزوة في انزاس وظهرت لي إلاهة الشعر تومئ بلحظها نفرتي ابتسامها فاطلقت الخاطر بين يديها واذا به عائد بهذه الابيات استميحكم ان لا اقرأها الآن بل امضي في خطابي الى النهاية ثم اتممكم اياها على حدة

وصلنا بالانسان الى قمة مجدو الحاضر وهي قمة عالية كما ترون لو تطلعنا منها الى الوراء لاصابنا دوار من بعد المسافة وانحدارها . عجباً لهذا الكائن المسكين الجاهل الغشوم الذي كان يسعى ليل نهار وراء ما يفتات به ولا ينالهُ الاَّ بشق النفس ولا يكاد يستطيع الدفاع عن نفسهِ بين عواصف القدم حتى نفسهُ يقيس الكون ويزن النجوم ويخضع قوى المادة . هو الذي فاز على الدهر واحيا بالعلم العصور الغابرة فرأت من امامهِ بشهد لم تزهُ عين ولم يحلم بهِ خيال . ما اغرب هذا التاريخ تاريخ البشر على الارض قصيدة من قصائد الادهار ابياتها الاولى منقوشة في بطون الارض لا بطون الكتب رويها آلام وقوافيها دموع . وبعدها كم من عقبة فتتوح . ومعضلة فاكتشاف . وحيرة فيقين . وضلال فهدى . وحلم فحقيقة . وكل ذلك من بدع تلك الكتلة الصغيرة المضطربة في رأس الانسان

فيا للرقي السامي الشريف قدر لهذا القرن ان يكون سيد القرون وان يفهم الناموس الاكبر الذي تخضع لهُ الاحياء وغيرها وان الانسان لا يبقى الاَّ اذا مشى ولا يثبت الاَّ اذا تحول وان الكون يحيا ويرقى ولا يشابه يومهُ امسهُ ولا غدهُ يومهُ . قدر لهُ ان يفهم هذا الناموس العجيب — التقدم الدائم وان الزمان كالشلال لا يقف في سيره ولا يرجع الى الوراء وان كل دقيقة تصلنا منهُ هي خلق جديد وصورة جديدة وان الكرة الارضية لم تكن بالامس كما هي اليوم وكما ستصير في الغد فلا حال تدوم ولا صورة تبقى سنة الله في البقاء نشوء وارتقاء

ماذا تكون فتوحات الجيل الآتي وما هي المفاجآت التي يتوقعها ؟ ماذا تخبئ لهُ خاصية الاشعاع في المادة ؟ هل يتوصل الى اطلاق القوى الهائلة المضغوطة في الجوهر الفرد ؟ هل يهتدي الى تحويل المعادن ؟ هل يستطيع اخماد ثورات العناصر الطبيعية ؟ هل يتمكن من

الشعور بالظواهر الجوية كالشعور بأزيز المجلّات؟ هل يخرق اسرار الكهربائية والمغناطيسية؟ هل يحل مسألة الحياة؟ كيف اجلنا الطرف لا نرى الاّ ممهدات والغازّ واذا قابلنا بين ما نعرف وما نجهل بين ما نستطيع وما نعجز عنهُ نكاد كبرياء تزول ولا يبقى لنا الاّ ان نطأطئ الرأس صغاراً امام عظمة المجهول

هذا هو تاريخ الارتقاء على قدر ما يسعهُ الرمز والايماء ذكرت فيهِ النزر القليل من الجهد البشري العظيم وما لم اذكرهُ لكم هو عمل الافراد الخفيّ وحياة الجموع المظلمة والاطماع الطائشة وسط المعمعة والاهواء الدنيئة والغرائم المنفردة — كل ما يخرج من قوة الفرد ويتحدر الى قوة المجموع ليؤلف ذلك البحر العجاج . تلك هي مظاهر القلب البشري تتغير وهو واحد لا يتغير في ثياب الحرير والصوف او تحت دروع الفولاذ والحديد : رواية آلامهِ الخالدة من جرائم وجنون ودموع ودماء واعياد مجيدة وشجاعة لامعة واخلاص عظيم . هدير امواج البحر البشري يستفزهُ المد الصاعد تحت السماء الصافية او الغيوم المتلبدة تخترقهُ اشعة المجد الظافر أو لهيب النار الآكلة وفوق هذا القطيع المضطرب الحائر جيئة وذهاباً يتزلف الموت بليلهِ الابدي ويم الكون . والفكر من فوق هذا الكون يرف بجناحيهِ مدركاً شريعة البقاء الخالدة وهي التنازع وبقاء الانسب التنازع الدائم في الانسان وحول الانسان . الحق للقوة فالنصر يبقى والبائد تسجو عليهِ عناكب النسيان

وبعد ذلك كله فاين المصير؟ يخال مما تقدم ان القوة العظيمة التي رفعت الانسان من حضيض البهيمية ستظل ذاهبة بهِ صعداً حتى يتسنى لهُ العروج الى اعلى مراتب الكمال . ولكن مع الاسف لا نرى حولنا ما يؤيد هذا الظن فالرقي لا ينجم عن اشتراك النوع الانساني كلهِ في العمل ليكون كل عصر ارقى مما قبلهُ بل هو رواية تتوالى فصولها دون ان تتشابه وتتغير ابطالها في كل مشهد . كل امة تبدو لنا من خلال القرون مستقلة في ارتقائها من يوم تنشأ الى يوم تزول . تتعاقب الاجيال في حمل مصباح التمدن فيفرغ كل جيل ما عندهُ من القوى في سبيل تسريجهِ ويذهب كما أتى وكل تغير او شعاع جديد يرافقهُ سقوط ملك وقيام آخر

هذه مصر لم يُنهها طول اشراقها عن ان تدخل في ظلمات الخمول وكذا الهند والصين على وجودهما في مأمن من غزوات الفاتحين . وما ضرّ اليونان قيام رومة كما ضرها انبساط مجدها عند ما وقف بها حيث هي تنامت في ظلالهِ مكتفية بذكرى الماضي . وما كان هرم رومة نفسها الاّ بانحلالها الطبيعي لا بقيام البربر عليها . هكذا سيبلغ تمدن هذا الزمن غايتهُ

فيقف عند حد محدود ولا يقيه دم الشباب والقوة الجاري في عروقه فقد جرى مثله في عروق مصر عند ما نشطت فنضمها من ظلمات العصور الاولى وقد جرى مثله في عروق اليونان عند ما افاقت على العالم حكمتها وعلومها وفنونها . كل امة في الوجود ذاقت بدورها هذه الساعة المجيدة من القوة والابداع والغنى ثم ذهبت كأن لم تكن وكل واحد منا يمثل في حياتنا القصيرة ما يجري في حياة الشعوب والممالك . ألا ترى كيف يلمع كوكبه حيناً في زمن الشباب ثم تغشاه غيمة الخمول فتقف من بلغ الغاية التي اعتزت لها جوانحه فتكن عواصف النفس الثائرة على ما فيها من خصب وابداع وتزرع قواه بأحماها فيعود الى القناعة بالتدريج ولا يبقى سبيل للتوليد والاختراع . فلان يأخذ هذا العصر الغرور بشبابه فيتبدد همه وتخمد ناره وتستقر طوعه كأنها اشخاص متحجرة يمتلها الخلف و يقيم عليها

ولنا في تاريخ الكائنات الف برهان على ذلك وكل نوع يرتقي الى ان يستكمل عدته للتنازع فيقف عند حده وتغلب الغريزة الذكاء ولا يزال الانسان يرقى من قمة الى قمة ويطير في فضاء المدنية من افق الى افق الى ان يأتي اليوم البعيد الذي لا يعود فيه قادراً على البقاء لان الشمس مصدر الحياة تفنى ايضاً الى الهرم فيخف نورها على مر الازمنة ومع النور الحرارة التي تستمد الارض حياتها منها

في ذلك اليوم ايها السادة يوم لا تعود حرارة الشمس كافية للارض يأخذ الانسان بالتقهقر كغيره من الاحياء الارضية ويرجوع الى حال الفطرة ايام كان برد الجليد يعض عليه بنابه وزمهرير الليالي يبعث الرعدة في مفاصله فاذا استيقظ كاد الخدر الساري في اعضائه يمنعه من النهوض وراء حاجاته القليلة . في ذلك اليوم يعود الى الكهوف والغيران يطلب الدفء من ورائها مقتنعاً من القوت بما تقدمه له الطبيعة الخائرة وقد اصبح فاتر الهمة متثاقل الحركة خامد الذهن فلا نار تتقد في عينيه ولا ابتسامة تلمع بين شفتيه . وتحت تلك الجمجمة التي اظلت فيما مضى عقله الكبير ينتشر ظلام اليأس ويخبو شعاع الذكاء . في ذلك اليوم بين المدن الفخمة والهياكل الصاعدة والمصانع الخرساء والجبال السابحة فوق الماء والقضبان الممتدة بين الارض والسماء يمر ذلك السيد الفاني كالغريب لا يكاد يفهم ولا يتذكر ولا يحس . انسانية بلا الم عام اشباح يخيف لو بقي من يفهم معنى الخوف وهكذا يثقل النعاس عينيه ويخدر شيئاً فشيئاً الى هاوية نومه الابدي ومن اعماق الظلام الخيم على مسرح الانسانية الخالي لا يبقى من صوت يصعد نحو اللانهاية لا حس ولا حركة لا صلاة ولا انين . الاعمال العظيمة احلام الابطال همة الجبابرة جهاد العقول غليان الشباب الحب

كلهُ يدرج في الكفن ويطوى تاريخ الانسان بكلماتٍ ثلاث : عاش وتألم ومات والارض الشاهد الوحيد هذه المأساة رفيقةُ الازلي امهُ التي احتضنتهُ تبقى بعدهُ زماناً طويلاً جثةً باردة تسبح في لجة اللانهاية

***

«لاهاي» هل صوتٌ يجوك يُسمعُ هيهات ما لاهاي الا بلقعُ
لم ينفع القصر الذي شيدته وكذاك أحلامُ الورى لا تنفعُ
جمعتهمُ الاطماع نيكِ فذدتُوا قالت لهم اطماعهم لن تجمعوا
ما ابدعَ السلم الذي حلوهُ لو وقفوا على تحقيقهِ ما أبدعوا
زرعوا الكلام فاحصدت واصبحوا السيف يحصد فيهم والمدفعُ
في يقظة طاحت بها اعمارهم فكأنهم فتحوا العيون ليهجعوا
علقت بهم نار الجحيم فاصبحوا سُعّارها لا يشبعون وتشبعُ

***

في ذمة الرحمن كل سميذع يشي اليهِ من العدو سميذعُ
جهلوا القتال فعلّموهُ ولم أكن من طيبهم سفك الدماء فطبّعوا
النازلون من الخنادق حيث لا نسم يهب ولا شعاع يسطعُ
يحمي حماها كل اروع باسلٍ ويظل من بغتاتها يتفزعُ
رجم وألغام وسيل لاهبٌ وأشعة تعمي وغاز يصرعُ
الماخرون الجو فوق سوابحٍ تجري بامرتها الرياحُ الاربعُ
من كل ثابتة الجناح أزيزها متواصل وبريقها منقطعُ
تسري وتنفجر القنابل حولها شهباً بها ثوب الفضاء يرصّعُ
الراكبون على البحار صواعقاً كم ضيعت منهم ولم يتضعضعوا
النافضون جبالها وثلوجها لا يطمئن بهم عليها مضجعُ
الذاهبون ولا رجاء العائدو ن ولا شفاء السابقون النُّبّعُ

***

يا للهجوم وقد دعا داعي الردى فمشوا اليهِ والأسنّةُ شُرّعُ
بجحافلٍ تُزجى وراء جحافل وفيالق تُزجَى فيالق تدفعُ
عادت بهم انجادُها فكأنهم سربٌ من العقبان سودٌ جوّعُ

صدئتهم قلّ السعير تصبها قلّ الحديد فلا تقيهم أدرعُ
بفتتهم من خلفهم وامامهم نيرانها فتفرقوا وتجمعوا
متسابقين وليس منهم سابقٌ متراجعين وليس عنها مرجعُ
في مأزق لموت لكرهم به رهج الخميس وأرؤسٌ تتقطعُ
حتى اذا انقشع الهجاج ولم يعد الاصدى ذاك الضجيج يرجعُ
طلع الهلال عليهم فاذا هم عدم فظيع أو وجود أفظعُ
الارض نافضة البطون تراحم الـ ـموتى بها فهمُ وقوف رُكَّعُ
فكأنهُ يوم القيامة فيهم أو انهم قبل القيامة قد دعوا

∴

يا ارضُ اي رواية مثلتها علمت فيها الناس ان يتوجعوا
هذي كنوزك اصبحت حمماً بها يركان صدرك ثائر يتصدعُ
أمللت حمل الساكنين فقلت آهِ فيهم كفى ما بالرجود تتعوا
أم شاقكِ الثوب القديم جررته لمّا قذفتِ الى قديميّ ارجعُ
فاراً يسيل بي الفضاء وليس لي مهج تسيل ولا عيون تدمعُ

∴

هل تبعثين مع الربيع معزيًا للناس يُنسي ما به قد رُوِّعُوا
فيعود وجهك ضاحكاً متهللاً ويعود زهرك في الربى يتضوعُ
ويعود للأغصان طيرك آمناً يتلو سراحهُ عليك ويسجعُ
ام تبعثين فدائفاً وقنابلاً لا تقنعين بها ولا هي تقنعُ
فيظل صدرك بالنجيع مخضباً ويظل وجهك بالخداد يقنعُ
انّا سقيناكِ الدماء زكيةً فاذا الربيع الى سقتك الأدمعُ

∴

يا ايها الانسان ماذا تصنعُ قدكنتَ أنشدتَ أريتَ فيما تطمعُ
هدمت يداك اعز ما شيدتهُ ماذا الذي من هدمهِ تتوقعُ
علمتَ بالعلم الحياة وانهُ سيفٌ على الحدين ماضٍ يقطعُ
أعطاك ما اعطى سواك فصارعٌ يوماً و يوماً مثل غيرك تصرعُ
انا لا اصدّق ان مجدك زائل انا لا اصدّق ان ملكك يخلعُ

ان كنت ذا جهل فعلمك واسعٌ او كنت ذا بغض فحبك اوسعُ
حب نورك في الوجود فان نأى عن مطلع ادناك منهُ مطلعُ
كم ضيعتكَ الحادثاتُ بليلها ثم اهتديت به فلستَ تُضيَّعُ
ارفعْ حجاب البغض عنك و بعدهُ عمّ السلام على ربوعك يُرفعُ
ان تمنع الاخلاق عنك دوامهُ فشرائع الاعمار ليست تمنعُ
الحب حق للوجود مقدس تتزعزع الدنيا ولا يتزعزعُ

الدكتور نقولا فياض

مصر منذ تسعين سنة

(٨)

قصر محمد علي باشا في شبرا

ورجعت من جزيرة الروضة الى منزلي فرأيت منصور القبطي وزوجتهُ قد عنيا بترتيب الامتعة والغرف وتنظيفها . اما الجارية فكانت مستلقية على الديوان والخادم البربري يدخن في صحن الدار والدجاج تسرح حولهُ وهي تلتقط الحبوب . واما مصطفى الطباخ فخرج في غيابي ولم يعد وقد توهم اني احضرت القبطي بدلاً منهُ فاصحب من تلقاء نفسهِ وهي عادة جارية هنا متبعة بين الخدم ولذلك يتناولون اجورهم يومًا فيومًا فاضطررت ان اكلف القبطي وزوجتهُ الاهتمام بالطبخ ولكني علمت في المرة الاولى انهما يجهلان هذه المهنة جهلاً تامًا ولا يعرفان منها سوى سلق الخضار والحبوب وطبخها بالماء والزيت حتى ان الجارية نفسها لما ذاقت الطعام الذي طبخاهُ اشمأزت نفسها وامتنعت عن الاكل واشتد بها الغيظ واوسعتها سبًّا وشتمًا . فاستأت جدًّا من عملها هذا واهانتها العجوزين المسكينين اللذين توليا امر الخدمة واراحاها من عناء العمل في كل الشؤون المنزلية فقلت لمنصور ان يفهمها ان دورها جاء لتتولى بنفسها امر الطبخ فكان هذا الطلب غير المنتظر كصاعقة سقطت عليها فثار سخطها واشتد غيظها واوسعتنا كلنا لومًا وتقريعًا والتفتت نحو منصور وقالت لهُ

قل لسيدي اني لستُ « أودالك » بل « قادن » وفسر لي منصور معنى كلامها اي انها ليست خادمة بل سيدة وقالت ايضًا انها ستشكوني للباشا . فصرختُ مغضبًا